

شعر

٧

قصيدة وحوار إيتل عدنان

ولماذا نزرع الرعب
في قلب المريخ المحروم
من الماء ؟
لماذا نقصده
ما دمنا عاجزين
عن اجتياز الطريق
المفضي إلى
عالم الموتى ...

تقطير الواقع
ترشيحه
تقليم الأشجار

موقف الدم
ذات نهار
كهذا النهار
مشوش بالأبدية
ينقطع جبل أفكاري
يتلاشى ببطاء
في ضباب الرأس

|||

من قال إن الجنون
يعمي الملائكة
يقص أجنحتها
ليخترق خيط الرغبة
جدارا أملس ؟

ما تعلمناه في أوقات الفراغ
بين قذيفتين
نسمع
نحيب أصابعنا
المعضوقة
رغائبنا المنسية
وذلك العار المتسرب إلى أقدامنا
ها هو اليأس يطل
يملاً عرفنا
ها هو المحيط
يعن في الاغتراب
وها هم رجال الشرطة
يصغون دون مبالاة
إلى صراخنا
عبر كثافة الغابة

|||

لا مخرج للانتظار
للرعب
لا مخرج للحب الآثم
أو للأخبار
التي حلت محل المطر
لن أشتري الخبز
لن أفتح نافذة للضوء
لن أتابع الألعاب
عبر الأقمار الصناعية

|||

لن أمسح وجهي
بمنشفة ناعمة
لكنني سأسألكم :
هل سددتم ديونكم الصغيرة ؟
هل أحصيتم الجثث ؟
هل قلتم للطبيب أنكم كنتم
تفضلون لو كان ساحرا ؟

دوار الأفكار
في حريق لحمنا
الجريح
والممزق

|||

في يوم كهذا
يفقد الجسد كينونته
بينما الجنود
يغتصبون ضحاياهم
ويلعنون آلهة الخصب

|||

ذات يوم
كهذا اليوم
فقد الوقت قيمته
في سوق المال
كما في هذه الغرفة
وفي الغابة المتحجرة
والخشبية المتسللة
والريح
وكل هذا الجحيم
من الفرع

ذات نهار كهذا النهار
نقرأ الاغتيالات
سيول الدم المنهمر
من الأفواه
من الرؤوس

|||

في الهاتف نسمع صراخا
ولا نرى الدموع
لا نرى العيون
نسمع
ما ازددناه من تلوث

أو التقيوم المعلق على الجدار
إنها حقا ليلة عادية
عادية كالمعتاد
عارية مثلما دونته
الموظفات
يخط يدك أنت
بخطنا
أو بخط الساقية
قبل أن يحوه

|||
حين يمنعونك من التنفس
لا تستسلم
بل تمتع بمذاق البوظة،
اللحم،
السّمك،
النباتات ...
تمتع بطعامك
كل وجبتك
كل جارك
أو الجبل
فالعالم لن ينتهي
أثناء حياتك
ولا أثناء حياته
بل سينتهي مثلك
بعد انتهائه
سينتهي مثل أي رابع
أو خاسر

|||
لا تلتفت كشبح
فلم يعد في العالم مكان
للأرواح
للأجداد
أو الأنبياء

|||

هل أمرتم شرايينكم بأن
تكف عن اللعب بدماعكم ؟
هل قستم طول الشاطئ
المليء باللاجئين الأشرار ؟
هل أخرجتم البندقية
من الخزانة
أو من تحت الفراش ؟
هل أخرجتم أصواتهم،
ابتساماتهم،
خطاهم ؟
رائحتهم الكريهة ؟

|||
هل نعمتم
على الأقل
بليلة مريحة ؟

|||
ليلة القيامة
السرعة المفرطة
الكحول
وممارسة الحب بجنون

|||
لا داعي لمكبرات الصوت
حين يكون دماغك
مصدر الضجيج

|||
لا داعي للموسيقى
حين يتعذر على أصدقائك
الإصغاء في أكفانهم

|||
يوم عادي
ورقة تتطاير
مثل سواها
تغادر شجرتها

في وصية
الأب
كان الحديد

|||

في يوم كهذا
ذكريات مشتتة من
حصى وحجارة
تقاوم الفناء

هكذا تتلقى البلدية
إشارات وتحذيرات
وتهديدات
وأعمال سحر
ولعنات
تمضي كلها
في اتجاه العدم
وعلى واحد
من شيطان الجحيم
ينتهي نهار
لم يرده أحد

|||

ثمة جريمة
تفوح رائحتها
في الأفق

أطفال ليسوا
من هذه الأرض
على ما يبدو
ينتظرون أن يتحولوا
إلى رماد

|||

عسيراً علينا
كان هذا النهار
الثقيل المزاج

الدرب طويلة
والموج يتراجع
مودعا المراكب

|||

تعلق المرأة غسيلها
على جبل السطح
فيحسبه المجنون
راية الاستسلام
ويسرع في إلقاء
التحية العسكرية مصفراً

|||

في هذا اليوم
هذا اليوم جداً
تقتلع العاصفة
كل ما يصادفها

|||

أذهب معها
أدخلها
وكن الريح

|||

خلف الانفجار بصماته
على الروح
في الشرايين
والأقدام
وفي الرحم

افرك عينيك
بالرمل
لتستقبل زيارة
اليقين اللامرئي
المودع في بلد
مفقود

فكف الندى عن زيارة الورود رفع أرنب أذنيه نحو هذه الحدود حيث تنزلق الجبال وكتل الجليد بينما التوافذ مفتوحة لتدخل العصافير وتحك مناقيرها مرتلة صلاة لريشها المقتلع كل يوم يتخمر العجين بدم خبز يومي جديد الاضطراب من سمات العالم والألم من طبيعة هندسته حتى العظم لكن هذا اليوم مفعم بالظلام حتى أنه لا يبدو مظلماً. الظلمة تسربت داخل تلافيف الدماغ وهذا ليس مكاناً بوسعنا أن نرى من خلاله الضوء.	الغضب يتصاعد يبلغ ذروته وراء نعش غضب لا يخبأ في قبضة اليد غضب يتغذى من خزانات شتى تواكب الانحدار الطبيعي للعقل لم يحن الوقت بعد لترسم الشمس دوائر الغيوم ففي صدرها جرح يمور وثأر في يوم كهذا أولى بنا أن نسير بلصق الجدران وأن نعلن ذلك جدول الأعمال: تدمير وإبعاد وظلام. لأنها تؤخذ غالباً، سيستحيل علينا النوم في سرير الشيخ الأكبر فنحن بلا بندقية أمطرت ثم توقف المطر
---	--

نكتب لنتنصر على غريزة الموت فينا

سليلة مأساتين عاتليتين: الأب الضابط الدمشقي في الجيش العثماني يشهد اندحار جيشه أمام الزحف الأوروبي بعين بصيرة ويد قصيرة، بينما تدمر الحرب مدينة إزمير الأسرة، مسقط رأس زوجته اليونانية، فيهاجر الإثنان إلى بيروت لاجئين. هذا اللجوء ستعيشه الطفلة إيتل عدنان كمأساة يومية، كجرعة أولى من كأس التشرد. وهي ما أن كبرت قليلاً حتى داهمتها المأساة الفلسطينية وما رافقها من تهجير وحروب وهزائم، حولت الخاص إلى العام، والمفرد إلى الجمع. من هذا الباب، ربما، دخلت إيتل عالم الشعر، لكنها لم تلبث أن سافرت إلى جامعة بيركلي لدراسة الفلسفة، مؤجلة انفجار قصيدتها إلى حين.

| هل كان لهذه المآسي دور في اختيارك دراسة الفلسفة؟
|| في الواقع، كان اهتمامي بالتاريخ باعث اندفاعي نحو الفلسفة. وحين أشير هنا إلى (التاريخ)، فأني أقصد التاريخ الذاتي، سيرة أسرتنا الصغيرة التي جعلتني مأساتها أتعامل مع التاريخ باعتباره مصدراً إفتراضياً للوعي الأخلاقي، مشتلاً ينمو فيه وجدان بشري جديد.
عندي، التاريخ متخيل، وإن دعمته الوثائق، لنقل إنه حلم يستند إلى الواقع.
لكننا كبشر، نفضل التاريخ باعتباره سجل الوقائع القديمة، وذلك على حساب الواقع الراهن الذي لم يصبح بعد تاريخاً.

لاحقاً، تطورت نظرتي للتاريخ فتعاملت معه باعتباره ذاكرتنا الجمعية، خاصة بعد أن اكتشفت مدى إحجام العرب عن قراءة التاريخ ومحاولاتهم الدؤوبة للفرار منه.
| في قصائدك، تنتقلين بين التاريخ والأسطورة بانسياب نادر. هل لأن المسافة ضيقة بينهما؟
|| تتيح لنا المادة التاريخية أكثر من قراءة، فما أن أختار قراءة معينة لحدث ما، حتى أراني

عدنان: قصيدة وحوار

أقفز إلى نقيضها. هذا هو الجانب المتعب في التاريخ. بالمقابل، تبدو الأسطورة أقل يقينا أو عناداً، مما يجعلها أكثر انفتاحاً على التوظيف الشعري.

... بما أننا نجهل التاريخ، فأني كرسيت بعض أعمالتي الشعرية للتذكير بوقائعه. خذ مثلاً قصيدة - ييوس - التي كنت أتمنى لو تدرس في المخيمات. إنها قصيدة سياسية مشحونة بالمضامين والوقائع التاريخية الثابتة، قصيدة مندورة للتذكير بأن القبائل الكنعانية هي التي بنت القدس ...

الإشارات القرآنية والإنجيلية والتوراتية غزيرة في شعرك. من أين أتيت بكل هذا اللاهوت؟
|| الشعر عفوي من حيث المبدأ. وإن كانت عفويته رهينة مكونات شخصية الشاعر، وأنا بنت هذا التراث، أباً وأماً وأرضاً، ليس بوسعي الفرار منه، حتى حين يتعذر علي فهمه بسبب اللغة. إضافة إلى ذلك، ثمة في الشعر عنصر اللامتوقع، اللامبرمج. للشعر ينايحه السرية، تلك التي تتغذى من مصادر موهلة في العمق. لذلك يستحيل التخطيط للقصيدة: البارحة لم أكن أفكر في الشعر. فجأة، اتصل بي اليوم الشاعر عبد اللطيف اللعبي، وهاهي قصيدة ناجزة لم تكن لتولد لولا هاتف ذلك الصديق ...

كتاباتي عن الهنود الحمر شامانية لا لاهوتية، وإن فاجأتني القواسم المشتركة بين الثقافتين. خذ مثلاً طقوس الدفن والتراتيل الجنائزية.

في العام ١٩٧٠، انتحرت صديقة حميمة، فودعتها بقصيدة جنائزية مستلهمة من مأساة الهندي الأميركي، أسميتها خمس حواس لموت واحد. وترجمها المرحوم يوسف الخال إلى العربية:
حملوا جسدك فوق أعشاب

جبل شاستا

وطرحوا جسدي في خزان

يحمل اسمك

خلال إقامتي في الولايات المتحدة، اكتشفت فداحة تغييب الثقافة الهندية. وتعمقت رؤيتي لهذه الكارثة لدى أقامتي في كاليفورنيا عام ١٩٦٥. وحين بدأت في الكتابة عن الهنود، لم أكن أتحدث عن مفاهيم مجردة، بل عن بشر من لحم ودم وفرح وحزن ...

إنها خبرة عميقة استمرت أربعين سنة من اللقاء والحوار والدراسة. فبقدر ما كان الهندي مغيباً، بقدر ما كان حضوره قوياً. وهو بهذه القوة المستمدة من ضعف تحول في كتاباتي إلى أسطورة نادرة.

|| والموت أيضاً قوي الحضور في شعر إيتل عدنان!

|| عشت طويلاً في الولايات المتحدة. أي في بلاد فقيرة بطقوس الموت، خلافاً للشرق بأديانه الثلاثة. أتذكر دائماً طقوس الموت في دمشق وبيروت ... كان الموت فيها يفيض حياة. في الولايات المتحدة، بالمقابل، وحدهم الهنود الأميركيون يملكون طقوساً لوداع الموتى. ولقد أتاحت لي إقامتي على مقربة منهم أن أعرف على شعرهم، وطرز معيشتهم، وطقوسهم وتقاليدهم.

وخصت عددا من أعمالها لدراسة ثقافتهم.

ثنائية الحياة والموت لا تقبل الانشطار لذا، يتعذر علي التفكير بأحد قطبيها دون الآخر. أنا أصلاً مولعة بالحياة، لا على الطريقة الأميركية، بل على طريقة امي الأرثوذكسية وأبي المسلم: كلاهما كان يفسح مكانا كبيرا للموت في حياته.

| في قصيدتك حضور صامت لعناصر الطبيعة والأدوات المنزلية والنباتات ...
|| قد يرجع هذا الحضور إلى كوني طفلة وحيدة بلا أقارب في مثل عمرها. هذه الوحدة دفعتني إلى التأمل في تفاصيل الحياة اليومية وفي تفاصيلي الخاصة أيضاً. أذكر أن أمي كانت تتركني ساعات طويلة في حديقة المنزل دون أن أشعر بالضجر...
حين كبرت، تحولت هذه التأملات إلى سعي للانبعاث أو الخلاص، إلى امل بعودة المشاعر النبيلة وحلم بإحياء الحياة...

| ما سر ولعك بالحضارة العربية الإسلامية ؟
|| الحرمان: في بيروت لم أتعلم العربية، لأنني كنت في المدرسة الفرنسية. وكنا ممنوعين من التكلم بالعربية. كان هدف فرنسا آنذاك إحلال الفرنسية محل العربية. تهميش الثقافة العربية حول العالم العربي في مخيلتي الطفلة إلى فردوس محرّم. لكنني تعلمت، مع الأيام، العامية في الرحلات والشوارع وزياراتي الدورية لدمشق.

| وماذاغن دمشق في شعرك ؟
|| كنا نقصدها أبي وأنا دون أمي. مما كان يدخلني وحيدة عالم الأب ولغته بفرعها الرسمي حيث الحوار يدور عادة بالتركية، والعائلي حيث يدور الحديث بالعربية. وهكذا، شيئاً فشيئاً، أصبحت أمتلك عالين متناقضين ومتكاملين في آن: في بيروت كنت طفلة مسيحية لها بحر تطل عليه عمارات عصرية، و في دمشق كان لي نهر وبيوت شرقية المعمار تسكنها نساء محجبات...
اهل لاحظت تكاملا ما بين هذين العالمين ؟

|| اكيد. كان هذا التكامل في داخلي، انا التي أعشق التاريخ، وأحلم بالتغيير الآتي. هذا لا يمنع أنني كنت احيانا اتعب من الترحال بين العالمين. وقد ظهر هذا التجاذب في شعري.
كيف فتح لك الشعر افاق اهتمامات خلاقة اخرى كالرسم و الموسيقى والقصة ؟
|| أنا كائن مائي. أضف الى ذلك أنني شعريا ربيبة المدرستين الاميريكية والعربية معا، أي انني مزدوجة وهذا واضح في شعري، وقد قادني أحيانا إلى محاولة عنيدة للجمع بين عناصر لا تقبل الجمع بسهولة.

فيما يخص الفن التشكيلي والقصة، كثير من الشعراء كانوا متعددي الاهتمام والموهبة: بول كلي مثلا كان رساما عملاقا، وعازف كمان ممتاز، بالإضافة إلى ممارسته النقد التشكيلي.
نحن العرب لا نقبل هذه التعددية بسهولة: نريد دائما ان نحد الانسان بمهنة واحدة تلتصق به من المهدي الى اللحد. أنا أرفض هذا التخصص الأحق المفروض من الخارج. فان جوخ كان رساما

عظيما، وكتب في الوقت ذاته باقة من رسائل الحب المذهلة.

إما هو دور فلسطين في سعيك الى الخلاص كشاعرة؟

|| بدأت فلسطين لدي بشعور بالذنب: كنت في بيركلي عضوة في اتحاد الطلبة العرب. كان بيننا فلسطينيون من أسرة حنايا و عراقيون و ليبينون... من خلال هذه الرابطة اكتشفت عمق الماساة الفلسطينية و الوحدة الثقافية العفوية بين العرب.

الواقع أن طفولتي في بيروت كانت تخفي عني ما يجري في فلسطين، ولم أسمع عن الموضوع إلا القليل اثناء زياراتي مع أبي لدمشق، هناك سمعت لأول مرة بوعد بلفور والهجرة اليهودية الى فلسطين.

| أخيرا، إبتيل عدنان، ما هو الشعر؟

|| الشعر ليس مجرد تعبير، بل لعله أسلوب بحث كالعلوم الطبيعية، أو طريقة لفهم العالم والطبيعة والسياسة. إنه لغة قريبة جدا من الفلسفة وإن تفوق عليها بحريته المطلقة. الشعر قادر على البدء من الصفر لأنه لا يقبل الخضوع لمنطق محدد. منطق الوحيد هو الحرية. لهذا نعتبر نيتشيه شاعرا وفيلسوبا في آن...

الشعر الحقيقي يطرق باب الأساطير. يخترقها، وهو لا يترجم أبدا بالكلمات، بل يخترع دائما لغته الخاصة.

ترجم القصيدة عن الانكليزية، وأجرى الحوار: فايز ملص

محطات

| منتصف الستينات : حرب فييتنام تنشر إبتل قصيدتها «نزهة الفارس الوحيد» في مجلة شعر أميركية مناهضة للحرب. ثم التحقت بحركة مناهضة الحرب وأسست شبكة من المثقفين الناشطين ضد تلك الحرب.

| في العام ١٩٦٧ نشرت أبتل قصيدة «يبوس»

| في العام ١٩٧٠ اقترنت الشاعرة من مجموعة «شعر اللغة» التي ضمت نخبة من شعراء الشاطئ الغربي «سان فرانسيسكو». لإبتيل عدنان مجموعتان شعريتان ترجمهما فايز ملص إلى العربية:

| قصائد الزيزفون (دار النهار بيروت عام ٢٠٠١)

| سماء بلا سماء (دار أمواج بيروت ١٩٩٧)